

نشأة الكلام

للككتور ابراهيم انيس

منذ أحس الانسان أن له أصواتا يتخذها وسيلة للتعبير عما يجول بخلد ولا يزال أفكاره وخواطره إلى غيره من بني جنسه وهو يسانل نفسه كيف نشأت تلك الأصوات ونمت حتى تكون منها ما يسمى باللغات ! فليس عجيبا إذن أن تروى لنا في ثنايا كتب التاريخ والأدب محاولات في هذا الشأن لفلاسفة اليونان ثم من بعدهم بقرون عدة لمؤلفي العرب من أهل اللغة .

وتبدو المسحة الدينية أو بعبارة أدق يبدو أثر ماورد في الكتب المقدسة في تلك المحاولات القديمة . فقد توسع هؤلاء وهؤلاء في تفسير آيات من التوراة والقرآن إشارة إلى نشأة اللغة الانسانية وجعلوا من تلك الآيات أساسا لنظرياتهم . ولن أعرض هنا لرأى من أسسوا نظرياتهم على أدلة عقلية مصدرها الكتب المقدسة لأن ما استندوا إليه يحتمل تأويلا وتفسيرا يمكن أن يتفق مع اتجاه العلماء في أيامنا هذه .

ولما جاء القرن التاسع عشر شهدت البحوث اللغوية فيه عصرا زاھيا . وكان بين تلك البحوث بل كان أكثرها تشويقا وجاذبية للنفس البحث في النشأة اللغوية .

وليس بين البحوث اللغوية ما نال من وقت العلماء وجهودهم مثل البحث في نشأة اللغة فقد عالجته عدد كبير منهم في مجلدات ضخمة لم تنتج لنا آخر الأمر إلا أراء قابلة لنقد كثير . وأدى هذا إلى أن كثيرا من العلماء انصرفوا عن البحث في هذا الموضوع .

وقبل أن أعرض إلى الاتجاه الحديث بين علماء القرن العشرين حول هذا

نفسه وصارت كعلم له تكرررت كلما تكرر العمل نفسه أو وجدت ظروف مماثلة. فإذا تصورنا أن جماعة إنسانية في عصر نشأة اللغة قتلوا حيوانا ففترسا مثلاً. وفي لحظة احتفالهم بهذا النصر رددوا في شكل جمعي أصواتاً خاصة أصبحت تلك الأصوات علماً على هذا الحادث تتكرر متى تكرر الحادث نفسه أو شبيهه وينتقل هذا المعنى إلى غير هذه الجماعة كما تنتقل معاني الكلمات إلى أطفالاً حين يسمعون الصوت ممن حولهم ويرون ظروفه فيربطون بين الأصوات ومدلولاتها التي فهموها بما أحاط بالعمل من ظروف. وقد يخطئون الفهم فينشأ تغيير في الأصل ربما انتقل بالصوت إلى معنى آخر أو معنى قريب منه وهكذا.

نشأت اللغة إذن كتعبيرات شبه مغناة ليست محملة إلى عناصر وقد وصفت بها حوادث خاصة. ومثل هذه التعبيرات بدأت مستقلة بعضها عن بعض وكوحدات كلامية تشبه الجمل ولكن غير كافية للتعبير عن الفكر ثم تطورت فتحللت عناصر جملها واتصلت الوحدات الكلامية بعضها ببعض ومالت أخيراً إلى الوضوح والاطراد ولكن لم تصل بعد لغة من لغات العالم إلى مستوى الكمال الذي ينشده عالم اللغة. فالمثل الأعلى للغة هو تلك التي تصور نفس المعنى بنفس التعبير أو ما يقرب منه في اطراد ووضوح ومع انسجام بين المعاني والأصوات وسهولة في التعبير عن كل دقائق المعاني في الحياة.

ابراهيم أنيس
المدرس بدار العلوم

الموضوع المعقد الذى يبدو أحيانا مستحيلا أورد أن أشير هنا فى اقتضاب إلى تلك النظريات المختلفة التى جاء بها علماء القرن التاسع عشر . ولشهرتها فى معاهدنا العلمية ، ومعرفة كثير منا بها أرى ألا أعرض لها بتفصيل أو تحليل لأنها أصبحت فى عداد النظريات التى يجب أن تذكر فقط كحلقة من حلقات تاريخ البحوث اللغوية . وأشهر نظريات القرن التاسع عشر ثلاث :

(١) تلك النظرية التى تنادى بأن اللغة لم تكن إلا نتيجة تقليد لأصوات طبيعية صدرت عن الانسان نفسه كما سمعها الانسان من الحيوان وفى مظاهر الطبيعة .

(٢) النظرية الثانية هى تلك التى تقول إن اللغة ليست إلا نتيجة لغريزة انسانية قديمة كانت خاصة بالانسان الأول ، وتقضى هذه الغريزة بأن كل أثر خارجى له صدق صوتى يصدر عن الانسان كما يحدث من ظواهر جسمانية كامتقاع الوجه أو اضطراب القلب نتيجة آثار خارجية وبطريقة غريزية لاسلطان الانسان عليها .

(٣) وتقضى النظرية الثالثة بأن كل مجهود عضلى شديد يقوم به الانسان يخفف حملة حين يتنفس المرء بشدة ويكرر تنفسه . ويتبع هذا التنفس الشديد أن الأوتار الصوتية تنذب وتصدر الأصوات التى تتطور فيما بعد إلى لغات .

تلك هى أهم نظريات القرن التاسع عشر فى صورة مقتضبة لأننا لم نرم هنا إلى شرحها وتحليلها فهى معروفة للكثيرين منا . والذى يمكن أن يعاب عليها جميعا هو أنها تفسر لنا نواحى محدودة للغة وتعجز عن تفسير أهم نواحى اللغات ومظاهرها . كما أنها تعطى الفرد كل الأهمية فى تكوين اللغة ولا تكاد تلح فيها أثر المجتمع فى هذا التكوين رغم أننا نعلم أن اللغة ليست الا مظهرا اجتماعيا . وفوق هذا وذاك فأصحاب هذه النظريات فرضوا علينا أن نتصور معهم وجود مجتمع انسانى صامت فيه نشأت اللغة !!

لم تجد إذن تلك الوسيلة التى لجأ إليها علماء القرن التاسع عشر حين بدأوا تفكيرهم فى نشأة الكلام بطريقة قياسية ففرضوا أول الأمر وجود مجتمع انسانى ثم لعب خيالهم الخصب فى تصور نشوء لغة فى هذا المجتمع . أما الاتجاه الحديث بين علماء اللغات فى البحث فى هذا الموضوع فهو أنهم يميلون إلى

الطريقة الاستنباطية بمعنى أنهم يبدأون البحث في اللهجات الحديثة . ثم ماتفرغت عنه من لغات قديمة ثم الأقدم وهكذا راجعين إلى أقدم عناصر لغوية رواها لنا التاريخ في صورة نقش من النقوش . وهم يرجون بهذا أن يستنبطوا القوانين العامة التي خضعت لها اللغات في تطورها في القرون التاريخية .. ومن تلك القوانين بعد التأكد من صحتها جملة وتفصيلا يمكن أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه اللغة في عصور ما قبل التاريخ تصويرا أقرب إلى اليقين من تلك النظريات التي ذكرتها آنفا وهم أيضا يستعينون في بحثهم بلغة الأطفال مع شيء من الاعتدال وبلا مغالاة في الاعتماد عليها لأن الطفل حين يبدأ المرحلة التقليدية لأصوات من حوله يختنك كل الاختلاف عن الإنسان الأول . فالطفل يقلد لغة كاملة النمو وحوله من الناس من يحسن تلك اللغة ويتكلم بها سليقة . والمحدثون يقصرون مدى انتفاعهم بلغة الطفل على تلك المناغاة التي يتسلى بها الأطفال قبل تمام السنة الأولى من سنهم أو تلك الأصوات الوجدانية غير الإرادية التي تصدر من الطفل حين تلبسه بحالة انفعالية كالخوف والغضب والسرور .. الخ .

وليس بصحيح أن مراحل كسب اللغة عند الأطفال تمثل مراحل نشأتها عند الإنسان الأول . فكما أن المراحل التي يمر بها الغلام في تعلمه اللعب على « البيانو » مثلا لا يعقل أنها تمثل لنا التطور التاريخي للموسيقى كذلك لا يعقل أن مراحل نمو اللغة عند الطفل تمثل مراحل نموها عند الإنسان الأول اللهم إلا تلك الأصوات الوجدانية التي تصدر من الطفل وليس للبيئة الاجتماعية التي تحيط به سلطان عليها . ويستعين المحدثون كذلك بلغات الأمم الأولية في بقاع المعمورة تلك اللغات التي من غير شك تمثل مراحل لغوية قديمة تشبه في بعض الأحيان مراحل بعض عصور ما قبل التاريخ .

على أن الهاد الأول للمحدثين هو التطور التاريخي لما نعرفه من اللغات معتمدين في هذا على مادون في كل العصور من آثار لغوية بما في ذلك تلك النقوش التي عثر عليها قديما وحديثا . وهم يرجون بهذا أن يصلوا عن طريق مقارنة تلك الآثار اللغوية إلى استنباط القوانين العامة التي خضعت لها اللغات في تطورها . وتلك القوانين